المعارضة الفرنسية للحرب الاستعمارية في الجزائر 1954-1962.
د/ علـوان أمــال -جامعة الجيلالي اليابس

إنّ الثورة الجزائرية خلقت شرخا عميقا داخل المجتمع الفرنسي بين مؤيد ورافض للحرب الفرنسية داخل الجزائر،هذا الرفض بدء خلال السنوات الأولى من الثورة الجزائرية قليلا ومحتشما، ليتوسع ويكبر بالموازاة مع تواصل وتطور الثورة التحريرية الجزائرية وما لاقته من قمع واضطهاد استعماري فرنسي، تطور هذا الرفض وأصبح تيار معارضة ضم قاعدة واسعة من المجتمع الفرنسي تنادي بصوت واحد" أوقفوا الحرب في الجزائر"، فما هي الدوافع الحقيقية للتيار المناهض للحرب داخل الجزائر؟ ماهو دوره في فرض المفاوضات كخيار سلمي ومشرف لفرنسا؟

إنّ دوافع تبني هذا الموقف كانت مختلفة ومتعددة، بحيث يصعب في الكثير من الأحيان الفصل بينها، نحن من خلال هذا الحيز الضيق سنحاول رصد أبرز أشكال المعارضة الفرنسية وتفسير دوافعها قدر المستطاع.

يرى بعض المؤرخين أن الانطلاقة كانت مع المفكرين الذين أيقظوا الضمير الفرنسي، ثم الفكر الذي تميز بطابعه الأخلاقي والإنساني1 ثم رجال الدين فيليهم المجندين، عند الطبقة المثقفة الفرنسية المعارضة للحرب في الجزائر نجد دافعين أساسيين يصعب الفصل بينهما أو ترجيح أحدهما على الآخر هذين الدافعين هما: صحوة الضمير الإنساني الرافض لكل ظلم وجور ولو ضد المجتمع المنتسبين إليه وبين دافع حب فرنسا والغيرة على مبادئ ثورتها" الحرية ، العدالة والإخاء" وصورتها بين الأمم وهي التي اقترفت أبشع أنواع التنكيل بشعب أعزل ذنبه الوحيد أنه أراد الإنعتاق من قيد العبودية وناشد الحرية والاستقلال .

1-دافع إنساني ضد سياسة التعذيب والقمع : إنّ عمليات التعذيب في الجزائر كانت منتهجة من قبل عناصر الشرطة قبل اندلاع ثورة التحرير 1954، بيد أنّ الصحافة اهتمت بملف عمليات التعذيب بعد اندلاع الثورة وما عقبها من حملة الاعتقالات والتعذيب التي شنتها الإدارة الاستعمارية ضد الجزائريين، فجاء أول رد فعل رافض لتلك الممارسات من مسؤولي 15 منظمة شبابية بالجزائر2 بإرسال رسالة 3 إلى الحاكم العام للجزائر بتاريخ 20 نوفمبر4 1954، جاء فيها بعد طلبهم محاكمة ومعاقبة مسببي أحداث نوفمبر، المطالبة بعدم استخدام القمع وعمليات التمشيط التي من شأنها أن تزرع الشقاق بين العرقين الجزائري والأوربي، وتأجج نار الحقد والكراهية ، وأن الحل يكمن في الاتفاق والتفاهم المتبادل.

ألفاظ وعبارات الرسالة الموجهة إلى الحاكم العام فضحت ممارسات الإدارة الاستعمارية كمصطلحي "القمع"و" العمليات التمشيطية "، لكنها جلبت لمحررها بيار برتيس" «Jean-Pierre Pertus»5 سخط الإدارة و الكولون مما اضطر أسقف الجزائر " ديفال"(Duval) أن يعيده وعائلته إلى فرنسا.

بعد أسابيع من نشر الرسالة وبالتحديد في20 نوفمبر1954 قام"بيار شولت"6 بترتيب لقاء بين أسقف الجزائر "ديفال"ومناضلين وطنيين منهم مستشارين بلديين عاصميين تعرضوا لتعذيب من قبل أجهزة الأمن الفرنسية عقب تفجيرات الفاتح نوفمبر،هذا اللقاء كان سببا مباشرا في إصدار"ديفال" يوم17 جانفي 1955 نص يدين فيه التعذيب مستشهدا بأقوال البابا الثاني عشر7.

في بداية الثورة قلة من فرنسي الجزائر رفضوا العنف والقمع الجماعي الاستعماري الفرنسي المسلط على الجزائريين لأنهم كانوا قد اطلعوا بداية الخمسينات على أحوال الجزائريين وما عانوه من غبن ومآسي، فعرضتهم مواقفهم تلك لسخط الإدارة الاستعمارية حيث ألقي القبض على "بيار شالوت" وعلى أخته "آن ماري" و أخريات مثل "دونيس ألبرت"Denise Walbert و"إفلين لافالات" Évelyne Lavalette التي عذبت و"أندري غاليس" André Gallice التي ألقي عليها القبض يوم 06 مارس 1957 خلال معركة الجزائر والتي سجنت لستة أشهر بتهمة إيواء المجاهدين8، وآخرون طالهم ما طال الجزائريين من تعذيب وقتل وأبرز مثال هنا هو حالة "موريس أودان" المساند لثورة التحرير، والفارين من الجيش الفرنسي لعدم اقتناعهم بصواب ما كان يحدث من تقتيل للأبرياء العزل.

لم يقتصر الرفض للحرب الاستعمارية في الجزائر عند المحاضرات والندوات أو تأليف الكتب بل تعداها إلى المشاركة في العمليات الفدائية، ضمن هذا الصدد يقول المجاهد "عبد القادر قروج" 9هناك العديد من الأسماء التي شاركت في معركة الجزائر، تظل مجهولة إلى اليوم سيما الأوربيين ...كان من بين المساعدين لي في مهامي أوربيين،من بينهم يمكنني ذكر "جورجيو أكامبورا"، "أندري كاستل"10." ويضيف قائلا كما كان هناك أوربيون في المجموعة التي كنت أشرف عليها أذكر "هنري دوكلار" "فيليكس كولوجي" .....من العمليات التي قام بها هذا الأخير حرق مستودع للحلفاء التي كانت في طريقها إلى فرنسا.."11 " دون أن أنسى النساء اللائي شاركن في وضع القنابل، حيث كان في المجموعة التي أشرف عليها عدد من النساء الأوربيات اللاتي كن يضعن القنابل منهن "إيما ناهون" التي كانت تشتغل بالإذاعة."

هذه الأسماء وغيرها تؤكد أن عدد من الأوربيين12 بصفة عامة والفرنسيين بصفة خاصة كان لهم الدور الفعال في ثورة التحرير13.

2- الدافع الثاني هو الغيرة على سمعة فرنسا ومكانتها الدولية:وكما سبق وأسلفنا يصعب فصله عن الدافع الأول، غير أننا نستشفه من مصطلحات خطاباتهم أو كتاباتهم، أبرز ما أثار سخط واستنكار بعض الأوساط الفكرية الفرنسية الأحداث التالية:

أ-معركة الجزائر;« La Bataille d'Alger » التي خاضها المظليون بقيادة الجنرال " ماسو" « Massu » من جانفي إلى سبتمبر1957، بأمر من الحاكم العام،

"لاكوست " صاحب سياسة "ربع الساعة الأخيرة"، وقد ارتكب فيها أبشع أعمال التقتيل والتعذيب والتدمير ضد المدنيين.

ب-الاعتداءات المتكررة على دول الجوار وخرق المواثيق الدولية وهو ما تجسد في:

-القرصنة الجوية الفرنسية واختطاف الطائرة المغربية المتجهة من مراكش إلى تونس يوم 22 أكتوبر 1956 ، والتي كانت تُقِلُ خمس زعماء من الثورة الجزائرية (أحمد بن بلة- محمد بوضياف- حسين آيت أحمد- محمد خيضر- مصطفى الأشرف) اعتقادا منها أنّ ذلك سيقضي على الثورة الجزائرية وكأنها ثورة زعماء و أشخاص !14

-مشاركة فرنسا كل من بريطانيا وإسرائيل في العدوان الثلاثي يوم 29 ماي 1956 ضد مصر للإنتقام من زعيم الثورة المصرية "جمال عبد الناصر" الذي اتهمته بالرأس المفكر والمدبر للثورة الجزائرية، "فالدقة التي ميزت الأحداث أكبر من عقول الأهالي"15.

-قصف ساقية سيدي يوسف التونسية في 08 فيفري 1958 بدعوى ملاحقة الثوار الجزائريين، أودى بحياة 79 مدنيا بينهم 11 إمرأة و 20 طفلا وجرح أكثر من 138 شخص ، ودمر مرافق القرية تدميرا كاملا.

هذه الإجراءات والممارسات فضحت النظام الإستعماري الفرنسي القائم على أساس اللاإنسانية، بيد أنها أيقظت ضمائر زمرة من مثقفي المجتمع الفرنسي وهي تلك الفئة المؤمنة بمبادئ الثورة الفرنسية "الحرية، المساواة والإخاء"،هذا التيار الذي مثله المفكر والفيلسوف الفرنسي"جان بول سارتر"في كتابه الشهير" عارنا في الجزائر" حمله نظرته حول الممارسات التي يقوم بها الجيش الفرنسي في الجزائر باسم الأمة الفرنسية،ووصفها بأنها عار كبير على فرنسا الحضارة ومبادئ ثورتها :حيث يقول في كتابه"...نحن فرنسيي المتروبول ليس لنا إلاّ درس واحد نتعلمه من هذه الأحداث، إنّ الاستعمار يعمل الآن على تهديم ذاته، لكنه مازال يعكر الجو، إنه عارنا وهو يهزأ بقوانيننا..." 16أما الندوة الصحفية التي نشطها بالعاصمة الإيطالية "روما"والتي كان موضوعها" الديمقراطية الفرنسية والمشكل الجزائري"17 والتي عبر خلالها عن أفكاره ومواقفه حيال ما يحدث حينئذ في الجزائر، أثرت في الكثير من المثقفين الفرنسيين ذوي الاتجاه اليساري، إلى جانب جون بول سارتر نجد المؤرخ شارل أندري جوليان الذي أكد وجود الأمة الجزائرية وضرورة الابتعاد عن أطروحة الجزائر فرنسية18، وفرنسيس جونسون(Francis Jeanson) 19،الذي جعل من جريدته "حقيقة من أجل"« vérité pour منبرا لفضح جرائم التعذيب وتجاوزات الجيش الفرنسي في الجزائر، هذا وقد أصدر بالتعاون مع زوجته "كولات" كتابا عن حرب الجزائر بعنوان" الجزائر خارج القانون" والذي نبه فيه الرأي العام العالمي إلى خطر الاستعمار وإلى شرعية الثورة الجزائرية، وكتاب

"حربنا" الصادر سنة 1960 والذي رد فيه على الذين آخذوه على دعم أعداء بلاده، لم يكتفي "جونسون" بالأقوال بل ساند الثورة الجزائرية فقد أسس تنظيم سري يعرف باسمه في 12أكتوبر1957، كما يعرف هذا التنظيم أيضا باسم "حملة الحقائب"،الذي ضم مجموعة من الفرنسيين والأوربيين الذين آمنوا بحق الشعب الجزائري في نضاله ضد سياسة بلادهم، وقد جعلوا من أوربا ميدانا لنشاطهم كنقل الأموال خارج التراب الفرنسي لشراء الأسلحة وبعثها إلى الثوار الجزائريين.

3- المراعين للمصالح الإقتصادية:لقد كانت نفقات الحرب في الجزائر طائلة جدا،وكانت الحكومة الفرنسية تخفي تلك الحقيقة المرة على الفرنسيين بشهادة واحد ممن شغلوا كرسي رئاسة الوزراء ، إنه "منديس فرانس" الذي صرح أمام الجمعية الوطنية الفرنسية في نوفمبر 1957 قائلا:" إن مصاريف حرب الجزائر شيء غريب حقا، والشعب الفرنسي يجهل تماما هذا الشيء الغريب ، وكل ما يقال له هو أنّ الثورة الجزائرية ستنتهي قريبا".20 فالآلة الاستعمارية الفرنسية فشلت في القضاء على الثورة الجزائرية، التي أنهكت خزينتها العامة و أوصولتها في بداية 1958 إلى حافة الإفلاس، الأمر الذي دفع بفرنسا إلى الإستنجاد بالولايات المتحدة الأمريكية، لطلب قرض مالي كبير منها لتمويل حربها في الجزائر، حتى على المستوى السياسي فإن الثورة الجزائرية استطاعت بالرغم من حالة الطوارئ والحصار، والخطوط الجهنمية أن تدخل فرنسا في أزمة سياسية حقيقية وخندق ضيق إذ توالى تساقط الحكومات ، فمنذ صيف 1954 حتى شهر أفريل 1958 شهدت فرنسا تعاقب ستّ وزارات، ومنذ 1954- 1962، شهدت فرنسا ثماني حكومات، بعضها لم يعمر سوى أيام .

استطاعت الثورة الجزائرية فرض نفسها على الرأي العالمي بسبب مشروعية مطالبها، كما استمالت إليها جزءا من أبناء غريمتها ، وسرعان ما تحولت المواقف الفرنسية الفردية الرافضة للحرب في الجزائر إلى مواقف جماعية فتيار معارضة مع إختلاف أسباب و دوافع الرفض، ونجحت في الضغط على ساستهم حتى يجنحوا للحل السلمي.

الهوامش:

1- محمد الأمين بلغيث: موقف المثقفين الفرنسيين من التعذيب والسجون والمحتشدات أثناء الثورة الجزائرية،مجلة المصادر،المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، العدد05، 2001، ص 193.

2-الرسالة وقعت من قبل التنظيمات التالية:

-les Guides de France (Françoise Becht), le MLAJ, les Francs et Franches Camarades, les Boys Scouts Musulmans Algériens et les Scouts Musulmans Algériens ,la JOC, l'ANEJI, l'AJAAS(l'Association de la jeunesse algérienne pour l'action sociale), les EIF, les EDF, la JEC, la JECF, l'Association catholique des étudiants d'Alger, les Scouts de France, (Pierre Roquebert, commissaire de la province d'Alger), et les CEMEA.

3- الرسالة نشرت إبتداءً من25 نوفمبر في أغلب الصحف اليومية والأسبوعية مثل:25نوفمبر بجريدة« L'Effort Algérien »، وفي جانفي 1955 بجريدة « La Route »، كما نشرت في شهر ماي من نفس السنة بجريدة
« Feux de France »

4- Alain Michel : « Juifs français et scouts, les Éclaireuses et Éclaireurs israélites de France de 1923 à nos jours », thèse d'histoire, université de Paris I, 1993, p. 225.

5- قام بتحرير الرسالة إلى جانب "جون بيار برتيس" كل من : " بول غوندي"(Paul Rendu)و "ميشال غيقال" (Michel Rigal).

6- "بيار شولت" (Pierre Chaulet طالب في الطب ومرشد بالكشافة الفرنسية les Scouts de France S.D.F)، كان عضوا بارزا بـ "جمعية الشبيبة الجزائرية للعمل الإجتماعي" (L' AJAAS) التي شهدت النور في ربيع 1952، نظمت هذه الجمعية لقاءات فصلية بين مختلف الشباب(أوربيين ومسلمين) لمناقشة مواضيع البطالة، المجاعة، الاستعمار،كان يحضر هذه اللقاءات مابين 300إلى400 شاب،كما اطلقت نشاطات اجتماعية في الأحياء المعوزة بالعاصمة: لتقديم الاستشارات الاجتماعية،تعليم الأميين، الفحص الطبي المجاني الذي كان يقوم به "بيارشولت". أنظر:

6- Armande Blasselle : témoignage sur les GDF à Alger dans Le scoutisme. Quel type d'hommes ? Quel type de femmes ? Quel type de chrétiens ?, Paris, Cerf, 1994, p. 413-420.

7- Pierre Chaulet : Le Soir d'Algérie, 29 janvier 2001

8- Raphaëlle Branche :La torture et l'armée pendant la guerre d'Algérie, 1954-1962, Gallimard, 2001, pp. 126, 127, 128, 132, 142.

9- عبد القادر قروج: مسؤول عن حزب الشيوعي الجزائري بمنطقة تلمسان ، إلتحق بصفوف الثورة التحريرية يوم 14 جويلية 1955،من أبطال معركة الجزائر،كان على رأس 13 مجموعة فيدائية، تحت القيادة المباشرة لياسف سعدي، حكم عليه بالإعدام،أطلق صراحه يوم 21 ماي 1962.

س- بلقاضي و ح- بوزيان :حوار مع عبد القادر قروج: "الثورة تأكل أبناءها "، الخبر الأسبوعي، عدد خاص،العدد 296، السنة السادسة،من 10/30 إلى 2004/11/05 ، ص 11.

10- أندري كاستل: المعروف بـ:"مراد كاستل" عمل إلى جانب بلعيد عبد السلام في وزارة الصناعة بعد الإستقلال.

11- نفسه.

12- ضمن هذا المجال يعقب السيد عبد القادر قروج:" يحز في نفسي التجاهل الذي يلقاه هؤلاء الذين ساهموا بأرواحهم وعائلاتهم وكل ما يملكون من أجل قضية آمنوا بها، في اعتقادي أنه يجب أن يكون الاحتفاء بهم أكثر من الثوار الجزائريين، فعلى قلتهم يجب أن يكون تكريمهم كبيرا، من واجبنا إعادة الاعتبار لكل الأجانب الذين وقفوا إلى جانب ثورة التحرير منذ الاستقلال فنحن نتجاهل أصدقاء الثورة"

13- أغلب الأوربيين المساهمين في الثورة اختاروا البقاء في الجزائر بعد الإستقلال، أمثال " فيليكس كولوجي" الذي يقول عنه المجاهد عبد القادر قروج:"هذا الأخير الذي ما يزال على قيد الحياة، وبالرغم من زواجه بجزائرية و إقامته بالجزائر إلاّ أنّه ما زال لم يحصل على الجنسية الجزائرية ، حتى أنّ زواجه تمّ بالفاتحة فقط لأنه لا يحمل الهوية، فقد انتزعت منه وهو يسعى اليوم من أجل الحصول عليها من جديد..." ينظر نفس المقال للمجاهد عبد القادر قروج.

14- لكي نفهم ردة الفعل التي أحدثتها عملية القرصنة نقلب في صفحات الوثيقة التي أرسلها رئيس البعثة الفرنسية الدائمة لدى هيئة الأمم المتحدة إلى وزير الخارجية" كيمو" في 23 أكتوبر 1956:" البيان الصادر من المجموعة الإفريقية الأسيوية والذي وصف الفعل الفرنسي بأنه عمل استبدادي سيؤدي إلى تعكير إضافي للسلام وإلى زعزعة الأمن في شمال إفريقيا، وسيعيق الطريق للتوصل إلى حل سلمي لقضية الجزائر، وتحقيق طموحات الشعب الجزائري، إنّ ردود الفعل الأولية ليست في صالح فرنسا." حسن شحاته : حصة أرشيفهم وتاريخنا : حلقة عن الثورة الجزائرية، قناة الجزيرة ، جويلية 2010.

15- نشرت الصحافة الفرنسية أن المملكة الليبية ومصر هما اللتان تحركان التشويش وتدعمان التمرد من أجل الانفصال عن "الوطن الأم"، لأنهما غير راضيتين عما حققته الجزائر الفرنسية من تقدم وازدهار. ينظر : محمد العربي الزبيري: تاريخ الجزائر المعاصر ،ج2 إتحاد الكتاب العرب 1999، ، ص 27.

16- أحمد منغور: موقف الرأي العام الفرنسي من الثورة الجزائرية 1954-1962، دار التنوير،2008:ص207 .

17- المجاهد: "الفوضى في فرنسا"، المجاهد، العدد 110، 1961/12/11، ص12.

18- نفسه،ص 208.

19- فرنسيس جونسون: من مواليد مدينة "بوردو" الفرنسية عام 1922 حائز على إجازة في الآداب و دبلوم الدراسات العليا في الفلسفة، إنضم سنة 1943 إلى القوات الفرنسية في شمال إفريقيا، عهد إليه "سارتر" بإدارة مجلة " الأزمنة الحديثة" مابين(1956-1951)، كتب بإنتظام في جريدة الجمهورية التابعة لحزب الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري U.D.M.A .

20- عمار قليل : ملحمة الجزائر الجديدة ، ج2، دار البعث،قسنطينة ، ط1، دون تاريخ: ص 129.